الدرس الثالث: أدب السير

مفهوم السيرة:

لمادة (س.ي.ر) معانٍ كثيرة في لسان العرب ولعل أقربها إلى مفهوم السيرة بمعناها الاصطلاحي هذا المقطع الذي جاء فيه: "السّيرة: الطريقة. يقال سار بهم سيرة حسنة... وسير سيرة: حدّث أحاديث الأوائل"[1]، يعلّق سعيد يقطين على هذا النص فيقول: "تجتمع في السيرة معان تتصل بالطريقة التي يسير عليها المرء أو السنة التي يتّخذها في الحياة... وأخيرا فهي ترتبط بالحكي عن السابقين من خلال سرد أفعالهم ووقائعهم"[2]، إن المعنى الأخير هو الذي استنبطه الناقد عبد الله إبراهيم وركز عليه في شرحه وتفسيره للمعنى اللغوي (حدّث أحاديث الأوائل). يقول: "تشير الدّلالة الأخيرة إلى أمرين، الأول: تضمُّن اللفظ معنى الخبر أو الحكاية، والثاني الإشارة إلى قدم مرويات السيرة بدلالة ربطها بأحاديث الأولين، وأصبحت السيرة بدلالتها الاصطلاحية في المجال الديني تحيل على "الترجمة المأثورة لحياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم" كما اقترنت بالمغازي الدالة على مناقب الغزاة، واستعملت مفردة ترجمة في الاصطلاح بمعنى سيرة لكنها ظلت تدل على تاريخ الحياة الموجز للفرد"[3]. والمذهب نفسه يذهبه الكعبي في تتبعه للتطور الدلالي للفظ السيرة إذ يرى بأنها "ارتبطت... دلاليا في نشأتها الأولى بتاريخ الرسول، صلى الله عليه وسلم، العسكري وغزواته ضد المشركين لنشر الدعوة الإسلامية. ولهذا فإن هذه

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، مصر، دط، دت، ج24، ص2170

[2] سعيد يقطين، السيرة الشعبية العربية والمتخيل العربي، ص117

[3] عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، ص221

الكلمة في دلالتها المبكرة اقترنت بالمغازي التي تحيل على غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم"[1]. وقد توسعت دلالة اللفظ فيما بعد لتصبح شاملة لأشكال سيرية كثيرة؛ وعليه أصبحت السيرة تعرف اصطلاحا بأنها "فن أدبي له أهميته في حفظ حياة الأشخاص، ومعالم عصورهم، ولذلك أدرك أسلافنا العرب أهميته فاهتموا به مبكرا، واعتنوا بالترجمة للأعلام في مختلف فروع العلم والمعرفة والمبرزين في مجال السياسة والحرب"[2] والفكر والثقافة وغيرها من المجالات الحياتية، وعليه فإن السيرة –عادة ما– تتعلق بشخصيات لها موقع اعتباري في التاريخ والحياة.

أشكال النص السيري:

سبق وأسلفنا الذكر عن ارتباط دلالة لفظ السيرة في المراحل الأولى بالمغازي ثم توسعت الدلالة فيما بعد لتشمل أنواع سيرية متنوعة استطاعت أن تصنع خصوصيتها على غرار التراجم والسيرة الذاتية والسيرة الشعبية والسيرة الموضوعية والسيرة الذهنية وغيرها من الأنواع السيرية التي تمايزت فيما بينها "فأصبح مصطلح السيرة الشعبية يدل على مجموعة من الأعمال السيرية ذات سمات فنية متشابهة، وذات أهداف فنية متماثلة، ومصطلح السيرة الذاتية يدل على الكشف الذاتي عن جانب من جوانب الحياة الشخصية، ومصطلح السيرة الموضوعية يدل على التعريف المفصل بشخص معروف استأثر

[1] ضياء الكعبي، السرد العربي القديم (الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل)، المؤسسة العربية للنشر والدراسات، بيروت، ط1، 2005، ص155

[2] عبد اللطيف محمد السيد الحريري، فن السيرة الذاتية والغيرية في ضوء النقد الأدبي، ط1، 1417هـ–1996م، ص7

بالاهتمام ونال حظوة بوأته موقعا مهما في عصره"[1] وفيما يلي بسط لأهم أنواع السير في السرد العربي.

أ- السيرة النبوية:

يقترح الناقد سعيد يقطين اسم النص النموذج على السيرة النبوية وهذا الوسم استمدته من كونها تحوز سبق الريادة فهي "أول نص في التراث العربي -الإسلامي، معروف ومتداول، تحت اسم السيرة هو السيرة النبوية"[2]، إن هذه الريادة الزمنية مضافا إليها انفتاحيتها على الأشكال السردية الأخرى هي التي جعلت عبد الله إبراهيم يقترح عليها وسم "النص المؤسس للشكل السردي، وعلى الرغم من تأرجح مدونات السيرة النبوية بين تأسيس الشكل السيري وتوظيف إمكانات فن الخبر، فمن ناحية سردية كانت تلك المدونات إطارا دمجت فيها شذرات كبيرة من جهود الإخباريين، والنسابين، والمؤرخين، والأدباء، والمحدّثين، وسواهم؛ لهذا تعدّ السيرة النبوية ذخيرة لجهود الجميع"[3] ولعل هذا أكبر دليل على وسمها باسم الأصل المؤسس للشكل السردي أو النص الحاضن لشتاته المختلف.

والثابت تاريخيا أن تدوين السيرة قد مرّ بعدة مراحل فـ"قد أصبحت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاته مباشرة، وخلال القرون اللاحقة موضوعا لعدد كبير من المرويات، ومنها ما تركه محمد بن إسحاق (551=768) الذي تعد مدوناته الصورة شبه

[1] عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، ص222

[2] سعيد يقطين، السيرة الشعبية العربية والمتخيّل العربي، ص116

[3] عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، ص222

المكتملة لمرويات كثيرة ومتناثرة كانت تتداول مشافهة قبل أن يأمر المهدي (158-169=774-785) ابن إسحاق بتدوينها، بيد أن الصورة النهائية إنما تكاملت على يد عبد الملك بن هشام (213-828) الذي اشتهر بحمل العلم"[1]. وما تجدر الإشارة إليه أن هذا التدوين قد سبقه إطار سردي شفوي امتد لفترة فاقت القرن من الزمن؛ وهذا ابتداء من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم في العقد الثاني من القرن الأول الهجري إلى غاية وفاة ابن إسحاق في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، إن هذه الفترة الطويلة جعلت الباحثين يتوجسون من قضيتين اثنتين: الأولى قضية الرّيادة الزمنية لرواة السيرة والثانية: تكون نص السيرة وما يمكن أن يكون قد تسرّب إليه من مرويات إسرائيلية إضافة إلى الصوغ الجماعي ما يجعلها بؤرا بكثير من الحذف والإضافات[2]؛ وعلى كل فالثابت هو أنّ نص السيرة يعدّ في تقدير الباحثين نصّا أصلا (الأصل المؤسس) رغم كل بؤر الحذف والإضافة.

الأشكال السردية للسير العربية:

أ- التراجم:

تشكّل التراجم نمطا من أنماط الكتابة التاريخية، وهي فن عرف عناية كبيرة في التراث العربي، فمنذ القرن الثاني للهجرة بدأت التراجم في الظهور ثم أخذت تكثر كمّا وكيفا بتوالي العصور حتى بلغت من الكثرة في التراث العربي حدّا لم تبلغه في تراث أيّ

[1] عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، ص223

[2] ينظر: عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، ص223

أمّة[1]. ومن أشهر نماذجها: وفيات الأعيان لابن خلكان، الوافي بالوفيات للصفدي، فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، سير أعلام النبلاء للذهبي وغير هذه الكتب كثير.

ب- **السيرة الموضوعية:**

وهي "بحث يعرض فيه الكاتب حياة أحد المشاهير، فيسرد في صفحاته مراحل حياة صاحب السيرة أو الترجمة، ويفصّل المنجزات التي حققها وأدّت إلى ذيوع شهرته وأهّلته لأن يكون موضوع الدراسة"[2]، ومن نماذجها القديمة كتاب سيرة معاوية وبني أمية لعوانة بن الحكم[3].

ج- **السيرة الذاتية:**

وهي "كتاب يروي حياة المؤلف بقلمه، وهو يختلف مادة ومنهجا عن المذكرات واليوميات"[4] أو هي بالتعريف المعاصر "حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركّز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته، بصفة خاصة"[5]، وما ينبغي لنا الإشارة إليه –في هذا الموضع– هو قلة اهتمام العرب بهذا النوع من السير قديما، ويقدم الدارسون مجموعة من التفسيرات لتبرير عزوف العرب عن هذا النوع من التأليف ومن ذلك هذا النص: "ولعلّ العرب كانوا أحرص الناس على حيواتهم

---

[1] ينظر: محمد عبد الغني حسن، التراجم والسير، دار المعارف، مصر، دط، دت، ص11

[2] عبد النور جبور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984، ص143

[3] ضياء الكعبي، السرد العربي القديم، ص159

[4] عبد النور جبور، المعجم الأدبي، ص143

[5] فليب لوجون، السيرة الذاتية (الميثاق والتاريخ الأدبي)، تر عمر حلي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1994، ص22

الخاصة حين رغبوا عن التراجم الذاتية لأنفسهم، ولعلّ أصحاب الخطر والشأن منهم من أهل القدرة على الكتابة قد عدلوا عن الترجمة ما دام غيرهم من الكتّاب والمؤرّخين قد تولّى ذلك عنهم. ولعلّ من خلق العربي وسمات نفسيته أن لا يتحدّث عن نفسه بقوله أنا أو عن عمله بقوله: عملت."[1] إن صيغة لعلّ تحيل إلى عدم الجزم بأسباب هذا العزوف التي تبقى مجرد تخمينات. ورغم هذا الإحجام فإن هذا النوع فإننا نجد بعض الشذرات في الكتب منها: سيرة المؤيد داعي الدعاة في القرن الخامس الهجري وسيرة الشاعر عمارة اليمني في القرن السادس للهجرة، وقد ضمّنها كتابه (النكت العصرية) وكتاب: "فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل الله ونعمته" لأبي راس المعسكري.

ما يجب التنبيه عليه في هذا المقام هو أن السيرة الذاتية كثيرا ما ترد متداخلة مع نصوص الرحالة، بل إن هناك من يعدّ الرحلة سيرة محدودة تبدأ بالانطلاق وتنتهي بالعودة إلى الديار، ومن نماذج هذا النوع رحلة ابن جبير، وابن بطوطة فقد ضمنا في رحلتيها جزءا كبيرا من الترجمة لحياتهما[2] وعليه فبإمكاننا عد هذا النوع من الكتابة سيرة حتى وإن لم يقصد صاحبها كتابة سيرة بالمعنى الفني الخالص.

د- **السيرة الشعبية:**

يرى سعيد يقطين أن السيرة الشعبية تعد "قمة الأداء السردي: إنها ملتقى نصوص عديدة كما أنها إبداع متعدد تحقق على مرّ الأزمان وظل مع الصيرورة يغتني باطراد بما

[1] محمد عبد الغني حسن، التراجم والسير، ص24

[2] ينظر: محمد عبد الغني حسن، التراجم السير، ص25

تضيفه إليه عبقرية الراوي العربي الشعبي إلى أن استوى نصا مكتوبا"[1]، وعليه يمكن القول بأن السيرة الشعبية نص ثقافي بامتياز بسبب الخصوصية التأليفية التي تنماز بها، والتي "تبرز مظهرا أساسيا من مظاهر المتخيل العربي الذي تتلاقح فيه التصورات المتعددة عن الواقع والعالم، وتتلوّن بأطياف الكيانات والثقافات التي احتواها المجتمع العربي-الإسلامي. فتجده يتلون بروافد ثقافية متعددة تنصهر في بوتقة واحدة هي الثقافة العربية الإسلامية. ولا نكاد نجد هذا المتخيل بهذه الصورة إلا في الثقافة الشعبية لأنها كما قلنا ملتقى نصوص متعددة"[2]. ومن أهم السير الشعبية نجد: سيرة الظاهر بيبرس، سيرة عنترة بن شداد، السيرة الهلالية، سيرة الأميرة ذات الهمة.

مكتبة الدرس:

* ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، مصر، دط، دت، ج24.

* سعيد يقطين، السيرة الشعبية العربية والمتخيل العربي، مجرة، دار البوكيلي، المغرب، ع9، 2006.

* ضياء الكعبي، السرد العربي القديم (الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل)، المؤسسة العربية للنشر والدراسات، بيروت، ط1، 2005.

* عبد اللطيف محمد السيد الحريري، فن السيرة الذاتية والغيرية في ضوء النقد الأدبي، ط1، 1417هـ-1996م.

[1] سعيد يقطين، السيرة الشعبية العربية والمتخيل العربي، مجرة، دار البوكيلي، المغرب، ع9، 2006، ص116

[2] سعيد يقطين، السيرة الشعبية العربية والمتخيّل العربي، ص119